«حزب اللّه» بعد عام على غياب مغنية: ماذا أعدد لسد الفراغ الحدودي... وللثأر؟

إبراهيم بيرم | جريدة النهار

2009.02.16

قل عام، كان مقدرا «لحزب اللّه» أن يتلقى ضربة موجعة مدوية من خلال اغتيال رأسه العسكري «التاريخي» عماد مغنية، ومن يومها وإلى أجل غير مسمى وُضع الحزب فجأة أمام تحديات ثلاثة ما برحت تؤثره وتشغل عقله الباطني الذي اعتاد التفكير العميق في معركة المواجهة الدائمة والمشعبة والمعقدة مع الكيان الصهيوني:

التحدي الاول تمثل في إضاءة الشموع كل عشية على قبر هذا القائد، وحراسة دائمة لضريحه في «روضة» الشهيدين في محلة الغبيري، حتى أضحى مزاراً يؤم على مدى 24 ساعة يوميا حيث تتلى الفاتحة والأوراد والأدعية.

الأمر لا يتصل بعقيدة الحزب الدينية فحسب والتي تعلي قدر الشهداء وتعظمهم، وتتعاطى وأجداثهم وكأنهم أحياء يرزقون، بل يتعداه إلى تمجيد هذا القائد، ورفعه الى مقام كبار القادة الرمزيين في صفوفه، منذ أن قرر الحزب الذي كان حديث الولادة وطري العود في بدايات أيام الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام 1982، أن يتنكب مهمة إدامة الاشتباك مع آليته العسكرية، التي كانت يومذاك في عز سطوتها، ليكون ذلك بمثابة الرافعة له الى الصدارة والواجهة.

وعليه، صار مغنية ثالث ثلاثة يخصص الحزب يوما لإحياء ذكراهم، هم الشيخ راغب حرب إمام جبشيت الذي قضى غيلة على يد القوات الاسرائيلية وعملاؤها في ليلة شتاء عاصفة عام1984، الى الأمين العام الثاني للحزب السيد عباس الموسوي الذي قضى أيضا غيلة بصاروخ جو- أرض اسرائيل عام 1992 بعدما كان أرسى مدماك الانطلاقة الثانية الحقيقية في تاريخ الحزب.

ومن قدّر لهم أن يقاربوا دواخل الحزب يدركون حجم الضربة التي تلقاها باغتيال مغنية، فالرجل الذي كان يقترب بخطى حثيثة نحو بداية الخمسينات من عمره استثنائي بكل مقاييس «حزب اللّه» ومعاييره وموازينه الثقيلة، فهو أولاً يجمع بشخصه كل مراحل الجهاد والمقاومة ضد إيرائيل منذ انتمى وهو في نحو السادسة عشرة من عمره الى الكتيبة الطالبية في حركة «فتح» وهي الواجهة التي أنشأها العقل

السياسي العسكري ذو الوزن في هذه الحركة لتكون معبرا للمجموعات اللبنانية والعربية والعالمية للولوج الى فضاءات هذه الحركة، التي شاء هذا الرمز فيها أن تخرق جدار الحصرية الفلسطينية بشخصيتها ولتصبح حركة تحرر عربية.

واللافت في الأمر كله أن هذا الفتى يومذاك (عماد مغنية) ابن الريف الفقير النازح كالآلاف من أترابه وأمثاله في ضواحي العاصمة، كان واحدا من نخب سياسية وفكرية وعسكرية آلت بالتواتر إلى «حزب اللّه»، ودخلت نسيجه التنظيمي متماهية مع خطه ونهجه حتى اليوم، فأعطت الحزب سمة الوراثة لخط النضال ضد إسرائيل الذي انطلق في لبنان مطلع عقد السبعينات وبالتحديد بعدما انزاح الوجود الفلسطيني من الاردن، لينتقل الى العاصمة اللبنانية.

وعليه، كانت قيمة عماد مغنية الرمزية لدى الحزب قيمة مضافة، فهو من اكتنز في وعيه تراكم خبرة تنظيمية وعسكرية عالية اكتسبها من العمل العسكري الناجح تحت ظل «أبو جهاد»، ومن مواجهات عام 1982 مع الاسرائيليين وما بعدها، فضلا عن مهمات أخرى في الخارج بالتعاون مع الإيرانيين، أحاطتها أجهزة المخابرات العالمية بظلال وافرة المعلومات حولت الشاب عماد أسطورة، ليستحضر ظله وشخصه مع كل حدث أمني عالمي كبير الأصداء وعظيم الابعاد.

وعليه، دخل مغنية كشخص في أعماق العتمة والغيبة واحتجب عن الأنظار وصار القائد المستور الذي تدركه أقلية قليلة، ممن امتلكوا مفاتيح فك ألغاز حضوره وقيادته للجناح الأكبر لدة الحزب والذي يوشك أن يكون علة وجوده وسبب نموه وهو الجناح المقاوم، حتى أن ثمة رواية تلهج بها ألسن أعضاء الحزب وهي أن كثيرين في الحزب كانوا يجهلون أن «الحاج رضوان» الذي يقترب منهم ويدنون منه ويعرفون موقعه وقدره وقدراته العظمى هما شخص واحد وليسا شخصين.

وانطلاقا من ذلك، تعتبر مصادر الحزب العليمة أن سقوط مغنية أعاده من الضباب والاحتجاب الى عالم الحضور المتوهج، صارت صورة عملاقة بحجم بناء من أكثر من خمس طبقات وصارت تنسج حوله حكايات «البطولة» المزمنة، المتجسدة بكل عمل مقاوم فذ سواء في الجنوب، أم امتدادا حتى الداخل الفلسطيني، حيث يحكى اليوم عن اللقاءات التي انعقدت بين القائد العسكري لـ«حزب اللّه» وبين القائد العسكري لحركة»حماس» محمد ضيف بعد العام 2000، والتي أثمرت تفاهما على نقل كل التجربة القتالية العميقة للحزب إلى الحركة، وأنتجت من جملة ما انتجت جسما عسكريا مقاوما للحركة، مدربا على طريقة الحزب وتكتيكاته القتالية واستراتيجياته العسكرية، والتي تجسدت ميدانيا في مواجهات غزة، ان في المحافظة على الجسم المقاوم للحركة والحيلولة دون تحقيق رغبة اسرائيل في إبادته عبر استدراجه إلى مواجهات في المناطق غير الآهلة وان في تحقيق ضربات نوعية موجعة للاسرائيليين.

ولا ريب أن في الحزب من يقول اليوم ان شبكة الأنفاق في غزة وتلك التي تصل غزة بخارجها هي من انتاج العقل المقاوم لمغنية، ولهذا استعجل العقل الأمني الاسرائيلي اغتياله في دمشق، باذلا في سبيل ذلك جهدا خارقا.

أما التحدي الثاني الذي فرضه اغتيال مغنية على قيادة الحزب فهو الرد على اغتياله، وبمعنى أوضح الثأر لمقتله. وتحت هذا العنوان كان على الحزب ان يكب على ثلاث مهمات كبيرة، الأولى مراعاة عامل الزمن حيث المطلوب الرد في أسرع وقت ممكن، والثانية اختيار هدف»استراتيجي» يوازي الى حد ما شخصية مغنية قيمة ودورا، والثالثة ألا تكون عملية الثأر التي يعتزم الحزب القيام بها، بمثابة الانجذاب الى مكمن اسرائيلي، لتستغل عبره الحدث من أجل أن تعاود تكرار فصول حرب تموز، أو ما يضاهيها ويوازيها من رد الفعل.

ومن يعرفون عقل الحزل الداخلي، خصوصا ذلك الذي يتعاطى بموضوع المواجهة مع اسرائيل، يعرفون أنه عقل عميق وهادئ وضليع، لذا لم يلتزم الحزب منذ البداية أي مدى أو موعد زمني للثأر والرد انطلاقا من معادلة فحواها أن الهدف الذي خسره الحزب كان استراتيجيا، لذا فإن الرد سيكون استراتيجيا وفي المحطات الاستراتيجية، ليغيب عنصر الوقت وتتدنى الى أدنى المراتب وقيمة عامل الزمن.

تلك المقولة التي كان على الحزب أن يتلوها على مسامع كل من يسأله ويسائله عن مسألة الوفاء بما تعهده من أعلى قيادي فيه. وعلى رغم ذلك أحسن الحزب استغلال الحدث من خلال فتحه مع الاسرائيليين أبواب مواجهة أمنية حقيقية على مساحة ثلثي العالم، واستطراداً أحسن الحزب التلاعب بأعصاب الاسرائيليين وانهكهم، كما تقول مصادره الى أقصى الحدود، حتى أنهم صاروا يتحدثون عن حادث الثأء لمغنية أكثر مما تلهج به ألسنة قادة الحزب، وهو أمر بالنسبة للحزب في غاية الأهمية لأنه يشكل أولا عملية ربط نزاع مع الاسرائيليين في زمن سعت فيه اسرائيل الى انهاء الغالبية العظمى من هذه الروابط بعدما أطلقت كل الأسرى الذين طالبها بهم الحزب.

ومع ذلك يعرف القريبون من دوائر التفكير في الحزب أن الوفاء بالعهد ليس أمرا ميسورا كما في السابق.

أما التحدي الثالث، فقد كان تحدي سد الفراغ المدوي الذي خلف»شطب» القائد مغنية من معادلة المواجهة التي أتقنها وبرع فيها.

ثمة في الحزب من يتحدث بكل صراحة عن ان الرجل لم يرحل قبل أن يعدّ من يخلفه ويستكمل المشوار وذلك عبر أمرين، الأول ان مغنية أدرك باكرا أنه والمجموعة التي واكبته من البدايات وصارت بمثابة «جنرالات» الحزب قد بدا نجمها ودورها يأفلان بسبب سقوط بعضها، او بسبب دخول بعضها الآخر طور الكهولة، لذا انشغل منذ ما بعد الانسحاب الاسرائيلي من الجنوب عام2000 ببناء الكادر العسكري الشبابي للحزب، مختارا إياه من خريجي الأقسام العلمية في الجامعات، لأن ذك ضرورة قصوى لاستيعاب تقنية الأسلحة المتطورة التي أدخلت الى سلاح المواجهة، وادخل بعج نعارك حرب تموز نهجا جديدا الى العقل العسكري للحزب يغاير الى حد كبير نهجه السابق.

ففي أعوام التسعينات وحتى عام 2006 اعتمج الجسم المقاوم للحزب على عدد محدود من المقاومين المحترفين(لم يتجاوزوا حسب بعض التقديرات الـ2500 مقاوم) أما بعد حرب تموز، فقد كان القرار بتوسيع هذا الجسم عدديا ليصير عبارة عن نواة جيش مقاوم يصل حسب بعض

التقديـرات الى مـا فـوق الـ25 ألـف قـاوم محتـرف، إضافـة الى مـا يماثلهـم مـن المجموعـات السـبابية التـي لا تـدرج في خانـة جسـم المقاومـة المتفـرغ المحتـرف، لكنهـا تعتبـر في مرتبـة أعـلى مـن مرتبـة الميليشـيات ولا أقـرب الى مرتبـة المحترفيـن.

وبـذا يكـون مغنيـة في رأي مصـادر الحـزب، قـد قـاد الانتصاريـن(انتصار عـام2000 وانتصار عـام2006)، ولـم يغـادر الميـدان إلا بعدمـا تيقـن أن ثمـة مواكـب تكمـل بعـده السـير والمسـير وبالطبع هـذا لا يعنـي أن الحـزب لا يشـعر في كل لحظـة بـدوي غيـاب هـذا الرمـز.